رحلة ابن فضلان دراسة وتحقيق
(دراسة فى الفكر الجغرافى العربى)

د/ سيد عبد الخالق السيد عرفان
أستاذ الجغرافيا التاريخية المساعد
قسم الجغرافيا ـ كلية الآداب
جامعة حلوان

المقدمة:

تعتبر الرحلات جانبًا هامًا من جوانب الجغرافية العربية لان الرحالة جغرافى متنقل، دقيق الملاحظة، متفتح الذهن، يعتمد على الملاحظة والمشاهدة والتسجيل، أكثر من أعتماده على المؤلفات المكتوبة .

وحين يتم ذكر دوافع الرحلة عند العرب يلاحظ أن مما يميز الرحلات العربية ذلك الشوق إلى استجلاء المجهول "لما عرف عن العرب – فى عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية – من شغف علمى ، فلم يكن هدف هؤلاء الرحالة من وراء عناء الرحلة ومشقة الطرق الكسب المادى، وإنما الشوق إلى المعرفة والعلم والرغبة فى السير فى أرجاء الأرض للتعرف على أقاليمها وشعوبها".

وقد أستطاع الرحالة العرب والمسلمون أن يضيفوا إلى التراث الجغرافى شيئًا جديدًا فريدًا فى بابه، متجددًا على طول القرون الوسطى، بل كان توفيقهم فى هذا الميدان أعظم وأبعد مدى من رحالة العصور الوسطى فى الأمم الأخرى – خاصة الأوربيون – ومن ثم أصبحت بعض الرحلات العربية من معالم الأدب العالمى وترجمت إلى لغات أخرى[1]

ولكن ما هى الرحلات التى يعتد بها فى مجال الفكر الجغرافى العربى.

يمكن التميز بين الرحلات ذات الصلة بالجغرافيا عن غيرها فاذا ما أغفل الرحالة ذكر الأرض والناس معًا، واقتصر فى رحلته على أن يتحدث عن الاشخاص

(1) حسن مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، وقد اهتم بدراسة الرحلات الجغرافية فى عدة مواضع ، ص ١١/٩ ، ص ٣٢٤ /٣٢٥ .

الذين قابلهم من العلماء والشيوخ، وما تلاقه منهم من علم، ففى هذه الرحلة تنقطع الصلة بينه وبين الجغرافية، إذ تصبح الرحلة مجرد سياحة عقلية دينية عاطفية لا تهتم بإكتشاف البلدان وأحوالها والطرق وما شاهد عليها والسكان ونشاطهم فى حياتهم اليومية والدول وأحوالها .

وفى ضوء هذا المعيار الجغرافى يمكن تقييم الرحلات العربية وترتيبها فنجعل فى القمة منها عددًا من الرحلات الشهيرة مثل رحلة ابن جبر، ورحلة عبد اللطيف البغدادى، ورحلة إبن فضلان، ورحلة إبن سليم الأسوانى .

ثم يلى هذه المجموعة الأولى مجموعة أخرى دونها ولكنها ذات فائدة جغرافية على نحو ما نجد فى رحلة ناصر خسرو علوى، والعبدرى، والتجيني وإبن بطوطة، ثم يتخلف عن هؤلاء مجموعة ثالثة اهتموا فى رحلاتهم بلقاء العلماء وزيارة المشاهد والمزارات والآثار على نحو ما نجد فى رحلات البلوى والهراوى، أو الذين سجلوا تعريفا ذاتيًا كابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا).

ومع هذا الترتيب التنازلى لقيمة الرحلات عند العرب، الا أن كل رحلة لا تخلو من فائدة خاصة فى مجال الحديث عن النظم الأجتماعية والتنظيم الأجتماعى للجماعات التى مر بها الرحالة فى مختلف مراكز الأستقرار البشرى .

أما عن الفرق بين كل الرحالة والجغرافى، فنجد ان الجغرافى وأن كان يعتمد على الرحلة والمشاهدة والمعاينة حين يكتب عن الاقليم أو القطر الا انه يهتم بالتعميم والوصف الشامل، نظرًا لاتساع مجال الكتابة حيث يتناول فى اطار مكانى متسع لكل جوانب الدراسة الجغرافية، وقد لا يكون تجواله قد شمل كل أرجاء الأقليم ، ومن ثم

يعتمد على المصادر النقلية، وهو بذلك يكتب فى حدود امكانياته المتاحة ، وقد تكون مثل هذه المصادر قاصره أولًا وتمثل عصره مما يجعل كتاباته فى النهاية غير مستوفاه أو دقيقة، ولعل أهمية عامل الرحلة كالدراسة الميدانية فى ذلك العمر بل كانت فيصلًا للحكم على الكتابات الجغرافية بمقدار ما كان يرحل الجغرافى بمقدار ما يبدع ويأتى بالوصف الجغرافى الصحيح، ومن ثم يتفاخر المقدسى على اقرانه فى هذا المجال كما لا يقل عنه روعة ابن حوقل، واليعقوبى بفضل رحلاتهم المعتمدة .

أما الرحالة فليس من عمله ان يغطى بالدراسه كل العناصر الجغرافية فى قطر أو أقليم يمر به، وانما يبرز قيمة ما يكتبه فيما يسجله بعين الفاحص الغريب المتنقل الذى يرى مالا يراه المقيم، ويقارن بين ما شاهدوه وما فى وطنه الأصلى أو الأوطان الأخرى التى مر بها، وهو بهذا يقدم صورة جزئية ولكنها ذات قيمة من هذه الناحية.

وحين تتابع الرحلات على طريق واحد فى فترات تاريخية تعطى صورًا للتغيرات التى طرأت وتفسيرًا لاسباب ذلك، على نحو ما نشاهد حين نقارن بين رحلة ابن جبير فى نهاية القرن السادس الهجرى، ورحلته العبدرى فى القرن السابع، ثم يليه التجيبي فى "مستفاد الرحله والأغتراب "

فنرى أن كل رحالة قد مر ببعض مراحل الطريق وأطلع على ما سجله من يسبقه على نفس الطريق وكتب ما حدث من تغير وأكد ما بقى من أحوال لم تمسها يد الزمن بالتغير.

واذا كانت الرحلات الجغرافية كفن من فنون التأليف قد واكبت الجغرافية العربية منذ نشأتها، وسارت معها عدة قرون، الا أنه مع بلوغ الخط الأصلى للجغرافية العربية

(المسالك والممالك والبلدان) الذروه فى القرن الرابع ثم تعرضت لمراحل من التدهور أو عدم الابداع والأصاله وبالتالى عدم الاضافة، وقد يكون السبب وراء ذلك أن انماط الممالك والمسالك والبلدان وتقويم البلدان قد بلغت ذروتها فى ظل السياده السياسية لمملكة الاسلام والظروف التى كانت من وراء ذلك ومتطلبات التوسع والاستقرار السياسى لمملكة الاسلام، ثم اعقب ذلك انحلال الربطة السياسية بين اجزاء مملكة الاسلام، بل وتعرض العالم الاسلامى لاخطار الغزو الخارجى الصليبى والتتارى والمغولى ، فضلًا عن الحركات الانفصالية فى الداخل، وقد حلت فى ظل هذه المخاطر فكرة المحافظة على التراث الجغرافى وتسجيله بعد أن تعرض بعضه للضياع، ولذلك ظهرت المعاجم والموسوعات لتحقيق هذه الغاية، وانحسر تمامًا التأليف فى مجالات الجغرافية الاقليمية أما نمط الرحلات فلم يتعرض لمثل هذه الظروف لانها جهود فردية، دواعيها قائمة خاصه رحله الحج – وبقاء الروابط الحضارية والاجتماعية وسهولة التنقل فى داخل ممالك الاسلام المفككة سياسيًا أو المحتلة.

ويجب الا ننظر إلى ما فى المكتبة العربية من رحلات باعتبار انه كل ما الفه الرحالة، بل ان ما وصلنا قليل بسبب ضياع الرحلات فضلًا عن طبيعة الرحله كمذكرات يومية قد تتعرض للفقد قبل ان يشرع الرحالة فى كتابتها .

وقد لا يتمكن الرحالة من تسجيل كل ما كتبه لضياع المذكرات اليومية على نحو ما اعتذر مسبقًا الهراوى بسبب أخذ الفرنج لكتبه وما تفرق منها فى البحر حيث يقول وقد زرت أماكن ودخلت بلادًا من سنين كثيرة، وقد نسيت اكثر ما رأيت وشذ

عنى أكثر ما عاينته[٢].

وما الاسباب الاخرى لضياع معلومات هامة من الرحلات أن عددًا من تلك الرحلات انما سطرت بعد اتمام الرحله التى تستغرق سنوات عديدة، وحين يقص الرحالة أو يُملى رحلته لا يحصى عقله كل ما شاهده من تفاصيل وقد يحدث تداخل بين أجزاء الرحلة إذا تكرر السير فى طريق أو تكرر دخول الرحلة إلى مكان (كالاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج اكثر من مرة) وهذا ما يعانيه قارئ رحلة ابن بطوطة، وهنا يظهر الفرق بين ما كتبه ابن جبير من مذكرات يومية وبين إملاء ابن بطوطة لرحلته بعد اكثر من ربع قرن من تجواله .

ومهما يكن من رأى النقاد المحدثين فى هذه المؤلفات فقد غاب عنهم أنهم يقيمونها فى عصرهم، لا فى عصر تأليفها، وهى ولا شك تعطى فى مجموعها صورة حية عن عالم العصر الوسيط فى داخل ممالك الاسلام أو خارجها، وهى لذلك ذات قيمة باقية، فقد أدخلت فى أطار المعرفه الجغرافية مناطق لم تكتب عنها كتابات جغرافية من قبل واتسعت بدائرة العالم المعروف إلى حدود أوسع مما كانت عليه قبل الإسلام.

واذا كان يعيب بعض الرحلات ما نجده من ذكر للاعاجيب أو الاساطير فان مثل هذا الامر ينظر اليه بمقياس عصرها، ولا نأخذها على انها حقائق مقررة أو مسلم

(٢) الهروى، الاشارة إلى محاسن الزيارة، نشر وتحقيق جانبين سورديل،، دمشق، ١٩٥٣، ص٣ ، ص١٠٠.

بها وأنما لمجرد النقل والذكر، ولو على سبيل التسلية والتشويق أو أرضاء القارئ المتذوق لمثل هذه النواحى الطريفة، التى قد تجمع احيانًا بين الحقيقة والخيال على نحو ما نشاهد من أخبار وأهوال البحار. ومثل هذا الخيال لا يزال فى عالم اليوم عن الفضاء الخارجى والكواكب.

محاولة تصنيف أو تقسيم الرحلات :

تصدى محمد الفاسى[٣] لهذا الامر فذكر أنواعًا عديدة بلغت **خمس عشرة نوعًا** هى – على سبيل الاختصار :

الرحلات الحجازية – السياحية – الرسمية (وذلك حين يرافق الرحالة سلطانًا فى سفر رسمى فيسجل ما حدث خلال الرحلة مثل ذلك ما كتبه ابن دقمان عن رحلة السلطان قايتباى) الرحلات الدراسية – الاثرية الاستكشافية (كرحله سليمان التاجر فى الهند والصين سنه ٢٣٧هـ) – الزيارية (للمشاهد والاضرحة والرباطات والخوانق) الرحلات السياسية – العلمية الميدانية (كرحله البيرونى إلى الهند أوائل القرن الخامس الهجرى قبل الكتابة عن جغرافيتها) – الرحلات المقامية – الدليلية – الخيالية الفهرسية – العامة – السفارية (كرحله احمد بن فضلان والتى سوف يتعرض لها الباحث بالتفصيل).

الأهمية العلمية للرحلات الجغرافية العربية بالنسبة لميادين الدراسه الجغرافية:

([3])أنظر مقدمة الاكسير فى فكاك الاسير لمحمد بن عثمان المكاسى حقيقه وعلق عليه محمد الفاسى ، منشورات المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط ، ١٩٦٠.

يمكن ان نشير هنا الى أمثله مما تقدمه الرحلات الجغرافية من مادة علمية صحيحية تخدم عددًا من فروع المعرفة الجغرافية.

ففى مجال جغرافية المدن :

الرحالة يهتم بما تحتويه المدينة من مرافق عامه وذلك خلال تصويره للحياة اليومية فيحرص على تسجيل كل ما يراه، وأحيانًا قد يحصى عددًا من هذه المرافق كالمساجد مما يعكس حجم المدينة ومستواها الحضارى ثم ينتقل الرحالة إلى خارج أسوار المدينة فيذكر الارباص والحواضر والضواحى وهى جملة توابع المدينة الاسلامية فى العصر الوسيط، وحين نطبق هذا على ابن جبير فى رحلته نجده قد اتخذ لنفسه منهجًا فى دراسة المدن منه الاهتمام بالمرافق العامة كالمساجد والاسواق التخصصية والمستشفيات والحصون والاسواق وابواب المدينة، ثم يعالج شبكة الطرق والمنازل وينتقل إلى الاضرحة والمقابر والمزارات، وأخيرًا يتناول الارباص وهى توابع المدن الكبرى أو ضواحيها مما يقع أطرافها ضمن إقليم المدينة.

وفى مجال جغرافية الطرق والنقل التجارى:

نجد الرحالة يهتم بطبيعة الحال بوصف الطرق ومسافاتها التى قطعها ويُجيد فى وصف منازل الطريق، ويتحدث عن كل منزل وخصائصه الجغرافية من طبيعية وبشرية. كما انه يهتم بتسجيل نظام الرحلة على الطرق غلى إختلاف أنواعها بإختلاف البيئات والظروف المناخية وحيوانات الحمل والركوب وإختلافاتها ما بين بحرية وبرية، وما يكون من البرية فى المعمور أو البرارى .

ومن هذه التفاصيل الدقيقة يمكن رسم شبكة للطرق المسلوكة فى العصر الوسيط بدقة كاملة، لا نجدها فى كتب الجغرافيا التقليدية من حيث التفصيل أو الدقة أو المعاصرة، ولعل رحلات الحج خير مثال لذلك. أما عن النقل التجارى فان الرحالة يرصد على الطرق السلع المنقولة والمتداولة بين الاقطار – على نحو ما سجل ابن جبير فى صحراء مصر الجنوبية الشرقية فى الطريق بين قوص وعيذاب حيث القوافل المحملة بالفلفل الأسود المتجهة من الشرق تجاه موانى البحر المتوسط إلى اوروبا.

كما سجلت الرحلات الطرق المهجورة واسباب هجرتها، والطرق البديلة ودوافع سلوكها وتحديد الزمن الذى ظلت فيه مستخدمة، ثم العودة للطرق الاصلية على نحو ما حدث لدرب الحاج المصرى فى وسط سيناء زمن الحروب الصليبية واتخاذ البديل فى صحراء مصر الجنوبية الشرقية، ثم العودة إلى الطريق الاصلى زمن المماليك .

فى مجال الدراسات الجغرافية الاجتماعية والاقتصادية :

نجد أن الرحالة يسجل احيانًا الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وما يتعرض له القطر من هزات ينجم عنها تغيرات واضحة فى السكان والحياة الاقتصادية على نحو ما رصد بدقة بالغة – عبداللطيف البغدادى – احوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية فى اواخر القرن السادس الهجرى فى ايام الملك العادل الايوبى (٥٩٥ هـ– ٥٩٨ هـ) فقد جاء الى مصر فى ظل هذه المجاعة الشهيرة فكتب عها تفصيلًا فى "الافادة والاعتبار" بما لا يتوافر فى كتب التاريخ والحوليات وغيرها من الكتب الجغرافية.

وفى مجال الكشف الجغرافى:

تسمح باتساع دائرة المعرفة الجغرافية داخل مناطق جديدة فى دائرة التدوين العلمى الجغرافى، فيلاحظ ان بعض الرحلات قد قدمت هذه الفائدة اكثر مما قدمته الكتابات الجغرافية، بل كانت هذه الرحلات الاساس الذى ارتكزت عليه الكتابات الجغرافية التالية لعصر الرحالة فى الحديث عن هذه المناطق، بل ظلت اخبار الرحالة الاصل الذى لا يضاف اليه كثيرًا فى القرون التالية، وخير مثال على ذلك رحلة احمد بن فضلان إلى بلاد البلغار ورحلة ابن سليم الاسوانى إلى النوبة وشمال السودان ورحلة ابن فاطمة إلى غرب افريقيا ورحلات بحرية عديدة للشرق الاقصى وعالم المحيط الهندى، ورحلة يحيى بن الحكم الغزال الى بلاد النورمان (الفيكتج) فى شمال اوروبا.

وسوف يسعرض البحث لنموذج لرحلة السفارية (كرحله احمد بن فضلان والتى سوف يتعرض لها الباحث بالتفصيل).

رحلة احمد بن فضلان

" احمد بن فضلان بن العباس بن شداد بن حماد "

شهد القرن الرابع الهجرى قيام عدة رحلات جغرافية هامة منها ما استهدف زيارة جوف آسيا مما نسميه اليوم جنوب الاتحاد السوفيتى ويحتل رحلة احمد بن فضلان المكانة الأولى فى هذا المجال سواء من الناحية الزمنية أو الاهمية الذاتية .

وقد تجدد الاهتمام برحلته أو رسالته هذه فى الاعوام الاخيرة بنفس الدرجة التى تمتعت بها لأول مرة منذ اكثر من قرن ونصف من الزمان .

وهذه الرحلة جديرة بالاهتمام بعد ان اصبحت فى متناول الجميع فى طبعة كاملة تقريبًا بفضل نشرها مجتمعة ضمن مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٩ تحت عنوان: رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) حققها وعلق عليها وقدم لها سامى الدهان .

وقد بدأ الاهتمام بهذه الرحلة على ايدى المستشرقين الروس لانها أحد المصادر النادرة للتعريف بالحالة الجغرافية فى تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبيًا يومها، ذلك ان تاريخ روسيا وما جأورها فى العصور القديمة والوسيطة غير معروف وهو لا يزال مهملًا فى كثير من نواحيه، وكان لابن فضلان الفضل فى القاء الضور الكثير على تاريخ تلك البقاع بما قدم من معلومات خاصة عن البلغار. ويكفى القول بأن هذه الرحلة من اقدم ما وصل عن بلاد الروس، بل لا نعرف رحالة سبق فضلان إلى تلك النواحى من جوف اسيا .

وهذه الرحلة السفارية تمت فى خلافة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ هـ-٣٢٠هـ) يوم ان كانت بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية كعبة القصاد، ولوفود والبعثات الاتية من مختلف العالم آنذاك . ومن هذه الوفود وفد ارسله ملك البلغار (بلغار الفلوجا) إلى بغداد يطلبون العون بعد ان ازداد ضغط الخزر عليهم من الجنوب، كما طلبوا فقيهًا يعرفهم شعائر الدين الاسلامى الذى اعتنقوه من قبل – وكان سفر ابن فضلان كفقيه ليحقق هذا الجانب من السفارة فضلًا عن صفته الرسمية فى تسليم الرسائل.

والبلغار كشعب اسس فى مستهل القرون الوسطى دولتين :

اقدمها فى حوض نهر الفلوجا الأوسط: (نهر اتل فى المصادر العربية)

وقد امتدت هذه المملكة المسلمة مابين جبال أورال في الشرق ونهر الفلوجا فى الغرب، وامتدت حدودها الشمالية فكانت تنتهى إلى ما اطلق عليه القدماء ارض الظلمات التى وصفها – فيما بعد – ابن بطوطة بانها مغطاة بالجليد فلا يثبت فيها قدم ولا حافر، وانما يكون السفر اليها فى عربات أو عجلات صغيرة تجرها كلاب كبار وهو وصف ينطبق على التندرة الاسيوية .

اما الدولة الاخرى للبلغار وهى الاحدث من السابقة فكانت فى حوض الطونه (الدانوب) فيما يعرف باسم بلغاريا.

والدولة الأولى هى التي زارها ابن فضلان، وكانت قد دخلت فى الاسلام فى حين كان الخرز على اليهودية. وكلمة البلغار تطلق على الشعب وعلى البلاد (الدولة) وعلى العاصمة التى كانت واقعة على نهر الفلوجا فى شرقيه وما زالت

اطلالها باقية على مقربة من مدينة قازان (على نحو ستة كيلومترات من شاطئ الفولجا الايسر).

أما عن تاريخ دخول الاسلام البلاد فغير معروف على وجه التحديد ويذكر ابن رستة الذى الف كتابه الاعلاق النفسية حول عام ٢٩١ هـ ان اكثر البلغار ينتحلون دين الاسلام، وفى محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة ... وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ومقابرهم كذلك وحين نرجع إلى تفاصيل رحلة ابن فضلان نجد حداثة عهد البلغار بالاسلام وان كان من المحتمل ان يكون حكمه عليهم كفقيه متخصص قد اظهر كثيرا من التقصير فى سلوكهم كمسلمين بالقياس على الاسلام المصفى خاصة حين يذكر عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والسلوكية التى تتضمن جوانب تخالف تعاليم الإسلام، وهذه الجوانب بطبيعتها نظم باقية نسبيًا فى المجتمعات حديثة العهد بالاسلام اذ لا يستطيع التخلص دفعة واحدة مما الفته من عادات وتقاليد لعدة قرون.

أسباب الرحلة :

على نحو ما سجل ابن فضلان فى مستهل رسالته نجد:

١- أن ملك البلغار أرسل وفدًا إلى امير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيه إرسال بعثه مكونة من فقيه دينى يعرف بشرائع الإسلام على ان يبنى له مسجدًا ، وينصب له منبرًا فيقيم دعوة الإسلام فى مملكة البلغار.

٢- كما سأل الخليفه بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، وقد إستجاب الخليفة للأمرين معًا.

٣- وقد تمكن الوفد الذى سافر من أربعة أشخاص ومعهم دليل (هو رسول لملك البلغار) وكان من بين أعضاء الوفد من يعرف اللغة المستخدمة فى بلاد البلغار، ومنهم من يعرف لغة الأتراك حيث يمر الطريق ببلاد الأتراك.

٤- وصلت الرحلة إلى مدينة كييف الروسية، فى عهد هارون الرشيد ولكنهم أسلموا فى سنة ٣٥٤ هـ مع ملكهم كما يقول ابن الاثدادى صـ.١٢٢ .

٥- وكان للخزر نشاط واسع النطاق فى تجارة المرور فى أوائل القرن السادس الميلادى، حينما كانت طرق التجارة بين الصين وفارس محفوفة بالأخطار.

٦- وكان الخزر يتلقون الحرير من الصين ليعيدوا تصديره إلى الإمبراطورية الرومانية.

٧- وقد بلغت سطوتهم حداً رفع البلغار إلى تقديم الافادة لهم مما كان كمسببات رحلة ابن فضلان .

٨- وقد إنتدب ابن فضلان لقراءة كتاب الخليفة المرسل لملك البلغار وتسليم الهدايا (وكان من بينها أدوية قد طلبها ملك البلغار).

٩- ومن الطبيعى أن يسافر مع الافراد الرسميين هؤلاء نفرًا من المعأونين لخدمة أعضاء الوفد .

خط سير الرحلة :

يمثل خط سير الرحلة بتفاصيله الدقيقه قيمة جغرافية فى ذاتها، لما إشتمل عليه من حقائق عن نظام الرحلة والإرتحال فى مثل هذه المناطق المتباينه فى ظروفها المناخيه والتضاريسية التى تختلف فيها النظم السياسيه والأهواء الدينيه فضلًا عن

إختلاف الأصول العرقية للسكان مما يعكس صعوبة الرحلة للأسباب الطبيعية والبشرية معًا .

وعلي وجه الإختصار فقد رحل الوفد من بغداد فى يونيه ٩٢١ م – صفر ٣٠٩هـ واتجه فى سيره شرقًا فشمالًا مارًا بإقليم الجبال فهمذان فالرى (قرب طهران الحالية) ومنها واصلوا السير إلى نيسابور وكان الطريق إليها محفوفًا بالأخطار لوجود العلويين فى إقليم طبرستان حتى بلغ من خوف أعضاء الوفد على أنفسهم ان تنكروا فى القافلة كمسافرين عاديين حتى لا يعلم انهم رسل الخليفة العباسى، ثم ساروا إلى بخارى وكان الطريق إليها آمنًا وهناك قابلوا أميرها الشاب نصر ابن أحمد صاحب خرسان واستقروا قرابة الشهر، وقد قابل ابن فضلان فيها العالم الجغرافى الجيهانى الذي كان وزيرًا لصاحب خرسان . وكان ذلك خلال شهر سبتمبر ثم عبرت الرحلة نهر جيحون (آمودارياً) في سفينة حتى وصلوا خوارزم وهناك رغب حاكمها فى منعهم من مواصلة الرحلة بالتخويف من أهوال السير شمالًا فى أرض الغز (الأتراك) ولكنهم أصروا وواصلوا السير إلى الجرجانية. وكان قد حل فصل الشتاء فاستقروا فيها حتى ينقضى فصل الشتاء (نوفمبر وديسمبر ٩٢١م، يناير وفبراير ٩٢٢م). ومن المعروف فى مثل هذه المناطق القارية من جوف آسيا تجمد مياه الأنهار لمدة عشرة أسابيع، ومع شهر مارس واصلوا السير ولكن بعد ان تخلف منهم عددًا من الفقهاء والمعلميين والغلمان إما خوفًا من مخاطر السفر بعد أن شاهدوا قسوة الشتاء فى الجرجانيه أو بسبب قلة الموارد للوفد بعد أن تعذر عليهم استلام أربعة آلاف دينار (هى خراج ضيعة قريبة من خوارزم) كان من المقرر أن تسلم اليهم ليستعينوا بها فى إتمام رحلتهم.

أما من بقى من اعضاء السفارة مع ابن فضلان فقد واصلوا السير وإجتازوا الغزبين بحر آرال فى الشرق وبحر الخرز فى الغرب (هى المنطقة التى تسمى فى معظمها الان جمهورية كازاخستان الاسلامية ضمن الجمهوريات الاسلامية فى جنوب الاتحاد السوفيتى) ثم واصلت الرحلة سفرها شمالاً إلى أن وصلت عاصمة البلغار بعد أن قطعت المسافه اليها من الجرجانيه في سبعين يومًا.

وهكذا نجد ان الرحلة استغرقت قرابة العام (١١ شهر) أما كيف عادت السفارة أدراجها بعد أداء مهمتها، وما هو خط سيرها فليس معلوماً لنا، إذ أن خاتمة رسالة ابن فضلان قد امتدت إليها يد الضياع ومن المحتمل أن تكون البعثه التى تمكث طويلًا فى عاصمة البلغار عادت ادراجها بنفس الترتيب، بمعنى أن تصل إلى الجرجانيه أو خوارزم قبل ان يحل فصل الشتاء ثم تمكث فيها إلى أن يقبل الربيع فتأخذ طريق العوده إلى بغداد فتصل اليها أوائل صيف عام ٩٢٣ م .

أهمية الرحلة :

١ – أصبحت رسالة أحمد ابن فضلان مصدرًا من أهم المصادر عن تاريخ الأقطار التى زارها وأعطى صورتها الجغرافية وحياة سكانها الإجتماعية.

٢ – أنها أول مذكرات دبلوماسية يكتبها عربى منذ أكثر من ألف عام باسلوب لا يختلف كثيرًا عما هو شائع فى كتابة المذكرات الدبلوماسية .

٣ – أنها وثيقة سياسية تاريخية حضارية هامة فيما جمعه عن سكان هذه المناطق كما قرر ذلك اهل الاستشراق، قد استطاع ابن فضلان دخول مناطق مجهولة، بل لم يكن من اليسير دخولها على نحو ما ذكر ابن حوقل عن بلاد

الروس وأنه لم يسمع احدا يذكر انه دخلها لان الروس يقتلون الغرباء، وانما ينحدرون مع النهر (الفولجا) للتجارة مع جيرانهم ولا يخبرون احدا عن بلادهم ولا يصحبون أحد معهم ، ولهذا جاء تقرير ابن فضلان فريدًا لأنه استطاع ان يدخل مناطق لم تتيسر لغيره ولكنه زارها بحكم صفته السياسية .

٤– لعل مما يبرز اهمية الرحلة ما تركته من أثر فى كتابات الجغرافيين العرب فمنذ القرن الرابع نجد كل من الاصطخرى والمسعودى قد قرأوا الرسالة واعتمدوا على ابن فضلان فى تصويره لتلك البلاد.

ويرجع الفضل لياقوت الحموى فى اظهار رسالة ابن فضلان بفضل النصوص التى نقلها عنه وذكرها للامانة العلمية باسمه – وقد أورد فى معجم البلدان هذه النصوص وذكر كيف أن الرحلة كانت معروفة ومدونة ومشهورة فى أيدى الناس، وانه رأى منها عدة نسخ متدأولة في عصره فى بلاد العجم والترك. واذا كانت بعض تعليقات ياقوت الحموى على الرحلة قد جاءت قاسية فيجب النظر إلى الرحلة كعمل رائد فى هذا المجال .

كما يجب النظر إلى الفاصل الزمنى الكبير بين ابن فضلان وياقوت (نحو ثلاثه قرون) وما يمكن أن يكون قد تم فى هذه الفترة من جمع حقائق ومعلومات جديدة عن هذه الاصقاع والنواحى الشاسعة ومع ذلك ظلت للرحلة أهميتها، بل يكفى نقل ما قاله ابن بطوطة حين زار بلاد البلغار ولم يستطيع أن يتجأوزها شمالًا فقال :

وكنت أردت الدخول إلى ارض الظلمة والدخول اليها من بلغار ... ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنه فيه وقلة الجدوى، والسفر اليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة يغطها الجليد فلا يثبت قدم الأدمى ولا حافر الدابة فيها.

تقيم رحلة ابن فضلان جغرافيًا :

من الضرورى أن يطلع الباحث على الرحلة حتى يحاط علمًا بما حوته من معارف جغرافية، ويمكن أن الاشارة هنا الى ما تميزت به الرحلة، وإلى أهم ما سجلته من حقائق عن الظاهرات الطبيعية والبشرية .

ولعل أهم ما يميز الرحلة:

١- دقة التفصيلات الواردةبها.
٢- تتميز الرحلة بالايجاز والاختصار والبعد عن الحشو التطويل.
٣- فمن حيث الدقة نجد أن ابن فضلان يحدد التواريخ والايام على طول خط السير فى مختلف مراحل الطريق.
٤- اتاح الفرصة لرسم الطريق الذى سلكه.
٥- قام بتحديد الفترات الزمنية التى قضاها فى كل قرية أو مدينة حل بها.
٦- وذكر الفترة التى مر بهاعند كل نهر أو مفازة إجتازها .
٧- أمتاز ابن فضلان بالوصف البارع إلى جانب دقة الملاحظة مع تسجيل كل ما يراه.
٨- وقد شمل وصفه الجغرافى عددًا من ظواهر البيئة الطبيعية والبشرية، ويحسن أن الاشارة هنا إلى أمثلة للتدليل:

أولًا : فى مجال الحديث عن الشعوب والسلالات والقبائل:

قد تنأولات رحلة ابن فضلان بالذكر المعجم، و(الاتراك) والصقالية والروس والخرز وهى شعوب تسكن جوف آسيا فى معظمها – ليس لها حتى عصره تاريخ

مكتوب، بل ان هذه الشعوب الرعوية لم تكن فى اطار التاريخ إلا عند خروجها من بيئتها الاصلية بالغارة على الشعوب المجأورة وهو امر مشاهد عند انسحابهم شرقًا حتى منشوريا والصين وغربًا حتى شرق أوربا وخاصة فى حوض الدانوب وجنوبًا بشرق عبر ممرات جبلية إلى شمال الهند وجنوبًا بغرب باجتياح المملكة الاسلامية وصولًا إلى الشام فى سبيل الوصول إلى مصر لولا صدهم عنها ... وهذه الشعوب تحتاج إلى مزيد من الدراسة التفصلية، وكان لابن فضلان الفضل فى تقديم معلومات عنها لم تتوافر عند غيره ، وعليه فهو تعرض لكل من:

١- المعجم.

٢- الاتراك.

٣- الصقالية.

٤- الروس.

٥- الخرز.

ثانيًا : فى مجال جغرافية العمران :

وقع اهتمام ابن فضلان على النحو الاتى:

١- وصف المدن والقرى والرباطات التى مر بها على الطرق.

٢- أشار إلى الخانات والمراصد.

٣- أعطى ابن فضلان اهمية خاصة لوصف المسكن.

٤- أشار إلى اختلاف اشكال المسكن.

٥- تعرض لمادة صناعة المسكن.

٦- أشار إلى مدى التوافق بين البيئة والمسكن المقام فيها.

٧- ذكر ان سكان البادية بيوتهم من شعر وهم فى حل وترحال.

٨- وتحدث عن القباب عند الصقالية.

٩- وأشار إلى سكن البيوت الخشبية فعند الروس الذين يقيمون بها ضفاف نهر الفولجا.

ثالثًا : فى مجال الجغرافيا الإقتصادية :

يستعرض ابن فضلان النشاط الاقتصادى للسكان من خلال:

١- الاشارة إلى الحرف المختلفة التى تباينت تباين البيئات وعطائها الطبيعى ومدى الاستجابة البشرية، وقد عرض لحرفة الرعى عند الاتراك وقدر ما يملكه الفرد من الاغنام وذكر مدى غنى المرعى بالحشائش الطبيعية.

٢- انتقل إلى حرفة الزراعة وذكر المحاصيل السائدة، وطرق تخزينها أو حفظها فى حفر ارضية بحكم البيئة الجافة والتربة التى تحول دون فساد المحاصيل لخلوها من الرطوبة.

٣- كما لا ينسى ابن فضلان ما فى الاقليم من اشجار مثمرة.

٤- حدد أسباب جودة محصول بعينه وما يترتب على قلة المحصول من أستخدام البديل على نحو ما ذكر من قلة الزيوت النباتية لعدم زراعة اشجار الزيتون (وعدم توافقها مع ظروف البيئة الطبيعية)، ومما ادى إلى استخدام زيت السمك كبديل .

٥- وذك ابن فضلان التجارة كحرفة وحدد المناطق التى يتم معها التبادل التجارى.

٦- وذكر انواع السلع المتدأولة والاسواق التى يقصدها التجار فالروس يتجارون فى الحوارى والجلود.

٧- كما تعرض للعملات المتدأولة.

٨- وذكر الضرائب والإتأوات المفروضة التى تتجأوز الافراد إلى الأمم أو الدول على نحو ما كان يدفع ملك البلغار الخرز مما كان سببًا من أسباب هذه الرحلة.

رابعًا : فى مجال جغرافية الطرق أو النقل والمواصلات :

لقد تضمنت رحلة ابن فضلان وصفًا لنظام السير على الطرق، وهو وصف يخالف ما نعرفه فى البيئات الصحرأوية الدافئة فى ظل الظروف المناخية القاسية الحرارة فى الصيف، لقد أعطى بذلك الصورة المقابلة لنظام الرحلة فى مناطق تتطرف فيها برودة الشتاء إلى حد التجمد والزمهريرومنها:

١- قدم وصفًا لدواب الحمل فى القوافل فهى هنا الجمال التركية التى تتناسب مع الظروف البيئية فى جوف أسيا، وهى صورة مغايرة للجمال فى الصحراء العربية.

٢- تم الاشارة إلى حجم القوافل، فقد بلغت القافلة التى سافر معها خمسة آلاف رجل وثلاثة آلاف دابة.

٣- لقد ذكر ما تضمنته سلامة السير على الطرق البرية.

٤- أشار إلى العوائق الطبيعية كمجارى الانهار حيث يتطلب الامر اجتيازها فى قوارب جلدية.

٥- ذكر أستخدام الدواب فى المناطق قليلة العمق أو المخاضات.

٦- كما أشار إلى ما كان يفرض على المارين فى هذه القوافل من أموال تدفع للقبائل التى يمرون عبر أراضيها.

وهذا فى مجموعه يعطى صورة حية عن جغرافية الطرق وشبكاتها، وعوامل قيام الطرق فى أماكنها، ومدى أثر العوامل الجغرافية فى تحديد مسارها، والغايات التى من أجلها أقيمت الطرق. وقد أشار من قبل الى المراصد والخانات والرباطات على الطرق عند اطراف العالم الاسلامى باعتبارها من ثغور الاسلام، وضمانًا لحماية المسافرين والتجارة وحراسة القوافل العابرة .

خامسًا : فى مجال الظواهر الطبيعية :

يتحدث ابن فضلان عن بعض من خصائص المناخ والمظاهر الطبيعية فى الاقاليم التى زارها على النحو الآتى:

١- فيعرض للقارية ممثلة فى الزمهرير الذى يصل إلى درجة التجمد فى الشتاء.

٢- وما يسقط من ثلوج خلال العاصفة الشديدة على نحو مانعرف من صفات مناطق الاستبس الاسيوى .

٣- وينتقل ابن فضلان إلى بيان اثر البرودة على السكان فى حياتهم حيث يتطلب الامر ضرورة توفير الحطب – كمادة وقود – طلبًا للدفء – فان

المبيت على غير نار يعنى الموت من شدة البرد ، ويشير فى هذا المجال إلى ان الاصدقاء يدعو بعضهم بعضًا للحديث حيث النار الطيبة .

٤- أما عن آثار البرودة على المسكن فتتمثل فى الماده التى يصنع منها وهى اللباد، وأما الملابس فتكون من الفراء، والادوات – المستخدمة تكسى بالجلود حتى لا تتشقى، بل تمتد آثار البروده إلى المياه فتتجمد الانهار لعدة اسابيع على نحوما ما شاهد فى نهر جيحون، وتنتشر مظاهر التجمد فتغطى الارض والنبات .

٥- وأما الرياح فهى شديدة – فى مثل هذه السهول الفسيحة وباردة مما يؤثر على السكان فى نشاطهم اليومى، اذ تخلو الشوارع والاسواق من المارة .

٦- كما بلغت ابن فضلان النظر إلى كثرة الصواعق وأن من عادتهم هجر المنازل التى تصيبها الصواعق اعتقادًا منهم بنزول الغضب الالهى عليها .

٧- ولعل الانهار من أكثر مظاهر الجغرافية الطبيعية التى وقع اهتمام ابن فضلان بها فى رحلته، ولهذا فهو يصف الانهار وما يتخللها من بحيرات خاصه نهر اتل (الفولجا)، ونهر جيحون ويذكر روافد الانهار، ويعرض لما ينمو على ضفاف الانهار من أشجار وما فى الانهار من ثروة سمكية. ومن الطريف حرص ابن فضلان على أجواء قياسات لتحديد عرض النهر، وعمق المياه فى المتوسط، وأعمق مناطق مجرى النهر عند اجتياز تلك الانهار المعترضة لطريق الرحلة .

٨- كما لا تخلو رحلة ابن فضلان من ذكر لبعض الحيوانات الطبيعية فى مثل هذه الصحارى الواسعة فى جوف آسيا ويذكر اختلاف احجامها ويشير إلى الخرتيت باعتباره أغرب ما رأى هناك.

٩- ويقرن ابن فضلان بين وفرة موارد المياه الدائمة وما ينمو حولها من نباتات، ومن ثم يلجأ إليها الحيوان البري فتكون بذلك هدفًا للصيادين اللذين يستخدمون أساليب خاصه فى الصيد تصل إلى حد إستخدام السهام المسمومة .

سادسًا : فى مجال النظم الإجتماعية للسكان :

فقد حرص ابن فضلان على تسجيل هذا الجانب من حياة السكان والشعوب التى زارها لما فيها من مغايرة وإختلاف فى العادات والتقاليد والمعتقدات، خاصة وأنه كفقيه ينظر ويقارن بين هذه النظم والنظم الاسلامية، كما يقارن بين المستوى الحضارى لهذه الشعوب والمستوى الحضارى فى مملكة الاسلام.

١- وقد أعطى العادات الإجتماعية من زواج وأفراح وأحزان قدرًا من الإهتمام بالوصف الدقيق.

٢- كما اشار إلى عادات المأكل والملبس مما يفيد فى دراسة تلك الشعوب إجتماعيًا وحضاريًا.

٣- ويذكر مقدار تخلف هذه الشعوب عن المستوى الحضارى فى مملكة الاسلام .

٤- وهكذا يعد ابن فضلان رائدًا في مجال وصف عادات القبائل والشعوب.

٥- ذكر طقوس ومعتقدات والنظم الإجتماعية، بما يفيد فى الدراسات الإجتماعية والتاريخية عن هذه الشعوب التى يقل عنها الحديث فى عصره .

الخلاصة :

على الرغم من أحمد بن فضلان لم يكن جغرافيًا بالمعنى المعروف ولا رحالة يتخذ من الرحلة أسلوب حياة، إلا أنه اصبح فى إطار أو دائرة الرحالة العرب بفضل ما تمتع به من نظرة فاحصة، وفضول شديد على المعرفة وامانه وصدق فى التصوير والتعبير وقد انتج ذلك فى النهاية هذه الملاحظات العامه عن حياة الشعوب والقبائل التى مر بها وعن البيئات التى عاشوا فيها .

وإذا كان إبن فضلان لم يتحدث عن الجانب السياسى من الرحلة وهى الغاية الأساسية من الرحلة– فإن ذلك ربما لم يصل من أواخر الرحلة، أو لعل طبيعة المهمة التى قام بها لا تسمح بسرد تفاصيل عن هذا الجانب، أو الهدف الحربى لإنشاء الحصن وموضعه وتفاصيل مكوناته .

ومهما يكن من امر فحسب ابن فضلان انه إستطاع ان يضيف إلى التاريخ والثقافة والفكر الجغرافى التى أثارت إهتمام العلماء والدارسين، ونالت التقدير العظيم منذ مطلع القرن الماضى ومازالت تحظى بمثل هذه العناية .

وهكذا تصبح رحلة ابن فضلان مثالًا واضحًا لما تقدمه الرحلة الجغرافية العربية من إثراء للمكتبة الجغرافية وفى مجال الفكر الجغرافى فى العصر الوسيط.

المصادر والمراجع:

١. **ابن جبير،(محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ٥٣٩هـ/ ٦١٤هـ)**، رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، عصر الحروب الصليبية، دراسة وتحقيق **حسين نصار**، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م .

٢. **أحمد أبو سعد**، أدب الرحلات، دار الشروق الجديد، بيروت، ١٩٦١م .

٣. **التجيبى السبتى**، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق واعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م.

٤. **العبدرى(أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى الحيجى، بدأ رحلته ٦٨٨هـ)**، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسى، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م.

٥. **حسني محمود حسين**، أدب الرحلة عند العرب، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م .

٦. **حسين مؤنس محمود**،تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الاندلس، منشورات معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٧م.

٧. **زكي محمد حسن**، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٤٥م .

٨. **شاكر خصباك**، رحلة ابن جبير ومكانتها فى الأدب الجغرافى العربى، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد السابع، ١٩٧١م .

٩. **شوقى ضيف**، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م .

١٠. **عبد العال عبد المنعم الشامى**، مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرن الثالث والتاسع الهجرى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة لقسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م.

١١. .....، مدن الدلتا فى العصر العربى، رسالة دكتوراة، (غير منشورة)، مقدمة لقسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

١٢. ..... ، نظم الري والزراعة فى مصر فى الكتابات العربية، الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، إسهامات العرب فى علم الفلاحة، الكويت، ١٩٨٨م.

١٣. ..... ، الطرق والمسالك الشرقية لمصر فى العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٩١م .

١٤. **عبد القدوس الأنصارى**، مع ابن جبير فى رحلته، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٣٩٦هـ –١٩٧٦م .

١٥. **عبد اللطيف البغدادى**، الافادة والاخبار، الطبعة الاولى، مطبعة وادى النيل، القاهرة، ١٢٨٦هـ.

١٦. **كراتشكوفسكى**، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج١ ، منشورات جامعة الدول العربية، ١٩٦١م .

١٧. **محمد مصطفى زيادة**، محاضرة عن ابن جبير، مكتب التبادل الثقافي للمغرب، بالقاهرة، ١٩٣١م .

١٨. **مجمع اللغة العربية**، المعجم الوسيط، ج ١، ط٢، القاهرة ١٩٧٢م.

١٩. **ناصر خسرو علوى** (٣٩٤هـ / ٤٥٣هـ)، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

٢٠. **نقولا زيادة**، الرحالة العرب، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٦م .